

خصوصية الكتابة النسوية: فعلية أم مفترضة؟

سوسن ابرادشة

جامعة الجزائر 02

تاريخ القبول: 2019/08/15

تاريخ الإرسال: 21/06/2019

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تبيان خصائص الكتابة الروائية النسوية، من خلال التعمق في فهم جماليات الأدب النسوي الفنية واللغوية، والغوص في عالم السرد الروائي النسوي، والذي تعرضّ ولا يزال إلى كثير من المساءلة النقدية بسبب الهوية المعلنة التي يعرضها، والتي تتمحور في الغالب حول قضايا المرأة وهمومها ومطالبها الهادفة للمساواة بينها وبين الرجل، ورفضها للتمييز والإقصاء اللذين سلّطوا عليها. من أجل كل هذا ارتأينا إلى استجلاء مظهرات الخصوصية الأدبية والفنية في المتون الروائية النسوية، وإبراز مواقف الرفض والتأييد لهذا المنطلق، ومن ثمة تعديد مجموعة من الخصائص البارزة في الكتابات الأدبية النسوية.

الكلمات المفتاحية: النسوية، السرد، الرفض، التأييد، الخصوصية.

Abstract:

This study aims to identify the characteristics of women's fiction, by deepening the understanding of the aesthetics of women's artistic and linguistic literature, and diving into the narrative world of women's

narratives, which is still exposed to a lot of monetary accountability because of the declared identity it presents, which is mostly centered on women's issues Their concerns and demands for equality between them and men, and their rejection of the marginalization and exclusion they have imposed on them. For all this we have sought to explore the manifestations of literary and artistic privatization in the feminist narrative, and to highlight the positions of rejection and support for this approach, and thus a number of prominent characteristics in feminist literature.

Keywords: feminism, narrative, rejection, support, privacy.

البحث:

إذا كان الحديث عن مصطلح الأدب النسوي قد أسال الكثير من الحبر، ذلك أنه رُفض تارة وأيدَّ تارة أخرى، فإنَّ الحديث عن خصوصية هذا الأدب حديثٌ يشوبه الارتباك، لأنه مرتبطٌ بمقولة لم تُثبَّت بعدُ حقيقةً وإنما نعتبرها كذلك.

ولعلنا بمحاولتنا إبراز خصوصية هذه الكتابة، فإننا اتكأنا بشكل كبير على ما نشاهده من جماليات فنية في السرديات النسوية وتميُّز لغة بعضهن وإضفاءها شعيرية تخص كتاباتها دون سواها، واعتمادهن على مصطلحات نسوية خاصة تتحدى السلطة الذكورية وتمرد عليها وتُفوقها رونقا وإبداعا، لتصنع الكاتبة في النهاية لوحة فنية متكاملة وهذا ما يعرف بالرواية النسوية.

وكما هو الحال بالنسبة للمواقف المؤيدة والرافضة لمصطلح الأدب النسوي، فإنَّ هناك أيضا نقاد وناقداً رفضنَّ إبراز خصوصية السرود النسوية، في حين تسارعت

الفئة المؤيدة للمصطلح للدراسة والبحث في الأعمال الإبداعية الأنثوية لإرساء خصائصٍ لهذه الأعمال، رغم صعوبة هذا الأمر، ذلك أنّ اللغة واحدة ومقومات الكتابة الروائية واحدة أيضاً، ولا اختلاف يمكن أن يكون في مواضيع الأعمال لكلا الطرفين، فحين تكتب المرأة عن الوطن يكتب الرجل أيضاً عنه، وحين يكتب عن الحب تفعل هي ذلك، ولا يمكن أن يكون هناك موضوع تطرق إليه الرجل ولم تطرق إليه المرأة أو العكس، ولا فروقات يمكن أن تبرز في أدبيهما إلا في الأسلوب وهو يختلف من كاتب إلى آخر ومن كاتبة لأخرى.

فهل وُجدت خصوصية في كتابات المرأة فعلاً، أم أنّ المهللين لقيام أدب نسوي افتراضوها بغية فرض انتصارهم في هذه المعركة النقدية التي تأبى النهاية والانتهاء؟

1 - الموقف الأول / لا امتياز ولا خصوصية في كتابات المرأة.

بقدر ما رُفضَ مصطلح الأدب النسوي، بقدر ما تُرفضُ أيضاً فكرة وجود خصوصية هذا الأدب؛ لكن المشكلة أن يكون الرفض الأكبر من الكاتبات أنفسهن، فمعظم الكاتبات تنفين وجود خصوصية في كتاباتهن على اعتبار أن الأدب إنساني بالدرجة الأولى ولا يصح تصنيفه أو وضعه في خانات لا صحة منها، وبما أن الموقف المعادي أثبت وجود خصوصية في أدب المرأة، فقد تساءلنا عن إنكار المرأة المبدعة لذلك؛ وكان أول ما جال ببالنا أنّ المرأة ترفض هذا التصنيف إمّا لتخوفها من التصنيف الدوني، أو لتخوفها من ردّة فعل القارئ الآخر والذي لا يمثل الرجل فقط

بل يمثل المجتمع بأكمله، ما يعني الأهل ودائرة المعارف جميعها وحتى الأجيال القادمة؛ والذي - أي الآخر - سيؤول كتاباتها ويعتبرها سيرتها الذاتية ومغامراتها التي تخجل من الاعتراف بها حقيقة، فتبوح بها للورقة بواسطة قلمها.

وهذا ما يفتح عليها بابا من الاتهامات والنظرات التي ستظل تلاحقها، ذلك أنّ كتابات المرأة غالبا ما لا تتلاءم مع الأخلاق والعادات العربية والتقاليد الدينية بالخصوص.

فالتاريخ الأدبي يشهد أنّ الكاتبة في القرن الماضي قد تعرضت للاتهام والمهانة، ولكثير من المشاكل بسبب كتاباتها سواء الروائية أم الشعرية، بل لا يزال المجتمع ينظر للمرأة الكاتبة على أساس أنّها منحلّة ومتحررة أكثر من اللزوم كي تكتب ما لا يجب أن تكتبه هي، ولذلك لا تكتب المرأة في وطنها بل تسافر بعيدا لتمارس إبداعها أو حريتها، فلطالما كان المنفى هو الحرية كما يقول "ميشال فوكو" - Michel Foucault.

فحسب جورج طرابيشي وهو الناقد الذي كتب كثيرا عن الرواية النسوية، فإنّ المرأة تكتب الرواية لتعترف من خلالها بأحاسيسها التي تكتبها في داخلها وتخجل من البوح بها على عكس الرجل الذي يكتب الرواية انطلاقا من رؤيته الفنية للعالم، فيعيد تشكيله من خلال إبداعه الروائي وهنا تكمن نقطة الاختلاف بين الأدبين.

يقول طرايبيشي: "ظلت الرواية فن الرجال شأنها في ذلك شأن العديد من مظاهر الحضارة الإنسانية الموسومة بميسم العنصرية الجنسية المعادية للمرأة... إنه حتى في الأحوال القليلة التي كانت المرأة تتصدى فيها لفن الرواية، كان تناولها الفني لها يختلف عن تناول الرجل، فالرجل في الرواية يعيد بناء العالم، أما المرأة فالرواية عندها بؤرة أحاسيس، وإذا أبجنا لأنفسنا اللجوء إلى لغة الثنائيات المتوارثة - المرذولة - قلنا إن الرجل يكتب الرواية بعقله، بينما تكتبها المرأة بقلبها"¹.

وفي تعليقه على رواية "امرأتان في امرأة" للكاتبة المصرية نوال السعداوي، يرى أنها لا ترقى أن تكون رواية لافتقارها لقوة البناء والحدث، فالرواية حسبه "لم تنبي على حدث معين كي تتسلسل الأحداث وراءها، ولكنها بالمقابل دفق هائل من الأحاسيس، والأحاسيس الثرية في الرواية النسائية تغني غناء قوة البناء في الرواية التي أورتنا إياها الرجال"²، ويخلص في نهاية دراسته إلى أن "الرواية النسوية نهر من الأحاسيس، وهذه المفارقة تلخص كل عظمة الرواية النسوية وكل محدوديتها في آن واحد"³.

ولأن الكاتبة ترفض خصوصية كتاباتها ويسعى الناقد ليطمس معالم الإبداع فيها، ويستهدف المجتمع المبدعات ليلقي عليهن تهم اعترافهن، فقد أمعنت الناقدة نازك

¹ جورج طرايبيشي: الأدب من الداخل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1978م، ط1، ص: 10.

² المرجع نفسه، ص: 12.

³ المرجع نفسه، ص: 13/12.

الأعرجي النظر في هذه القضية فصنفت فئات الراضين والمعارضين للنظرية النسوية ولمصطلحاتها في أربعة مستويات هي:

" أولا: الأدبيات أنفسهن، فهن ترفضن مصطلح الأدب النسوي وتفضلن مصطلح الأدب الإنساني.

والكاتبة بهذا الرفض تؤكد على تبعيتها للرجل، لأنها تخشى إن هي انزلت أن تتميز في الواقع تحت تسمية ذات صلة بجنسها، مما يشعرها بالفقد والضياع...

ثانيا: نقاد أدباء يرفضن المصطلح بمُجملة محافظةً على الركود النقدي السائد، ورفضاً للتواصل الثقافي المنجز بحيوية في الثقافة الغربية...

ثالثا: الساعين للمحافظة على وضع المرأة المتدني اجتماعيا وعرفيا في الثقافة المرجعية...

رابعا: مثقفون يفضلون أن يدمج الأدب النسوي ضمن الأدب كله، وذلك لإرضاء نزعة التفوق لدى الرجل المثقف ومحافظة على الوجود النسائي الخجول المتوجس في الحركة الثقافية الإنسانية"⁴.

ولعل هذا التصنيف يدفعنا للبحث في الدراسات النقدية التي كتبها الناقد/ الرجل عن الرواية النسوية، وذلك لتثبيت نظرية المؤامرة الذكورية، فنجد الناقد محمود فوزي

⁴ نازك الأعرجي: صوت الأنثى / دراسات في الكتابة النسوية العربية، دار الفكر، بيروت، دط، د ت، ص: 5

يعتبر أنّ "كتابات المرأة مجرد خريشة اجتماعية، فهي تخربش ولا تحفر ولا تتعمق في وجدان أو عقل القارئ، وكان من الطبيعي أن تنشب الكاتبة العربية أظافرها الطويلة في رقاب الرجل العربي تحاول أن تدمي وجهه للتخلص من عقدتها النفسية الأزلية"⁵.

وبعد قراءتنا لكتاب "الحرية في أدب المرأة" لعفيف فراج، فإننا نجد أنهم يتهم الكاتبات "بالرغبة في تحقيق الحرية الجنسية لبطلاتهن، وهي الرغبة التي افتقدتها"⁶، كما عاب عليهن "محدوديتهن، واكتفاءهن باستقاء مواضيعهن من حياتهن الخاصة، بحيث لا يبقى لهن بعد ذلك ما يمكن قوله. فهن يكتبن مواضيع خاطئة ولهن مفاهيم خاطئة عن الحرية، والمشكلة العويصة تكمن في مطالبتهن المساواة بالرجل"⁷

كما ترصد لنا الناقدة السورية بثينة شعبان في كتابها "مائة عام من الرواية النسائية العربية" بعض الأقوال، كقول حسام الخطيب معلقاً على رواية "الحب والوحل" لإنعام مسالمة، حيث يرى "أن هذه الرواية مثال ممتاز عن أدب النساء، والتي تعكس النفسيات المنحرفة لدى النساء"⁸. وهو نفسه الذي ظل يطابق بين الكاتبات وبطلاتهن في مقالته "الرواية النسائية في سوريا" ليطلق أحكاماً أخلاقية على الكاتبات لا على العمل الإبداعي، كما تشير إلى كتابات الناقد غالي شكري الذي "

⁵ محمود فوزي: أدب الأظافر الطويلة، دار النهضة للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، 1987م، ط1، ص: 52.

⁶ عفيف فراج: الحرية في أدب المرأة، دار ابن هاني للطباعة والنشر، دمشق، 1986م، ص: 79.

⁷ المرجع نفسه، ص: 81.

⁸ بثينة شعبان: مائة عام من الرواية النسائية العربية، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ص: 50.

لمعَّ غادة السمان ونعت البقية بأبشع النعوت "9، بينما "جورج طرابيشي وخرَّ نوال السعداوي بنقد لاذع صدامي وعنيف لأنها خرقت أفق انتظاره فيما كتبه عن النساء"10.

أما الروائي نبيل سليمان فإنه يهرب من دائرة الاتهام ليضيف رأيا آخرًا في هذه القضية، فهو لا يرى أي مفارقة من الناحية الاجتماعية بين الروائي والروائية، "فأعمال غادة السمان، عروسية الناطولي، سحر خليفة، آسيا جبار، ليانة بدر، وسواهن ففن على قدم المساواة مع أعمال الكاتب الذكر، والفروق الروائية التي يمكن أن تلاحظ بين منيف وسحر خليفة أو بين آسيا جبار والطاهر وطار كالفروق التي يمكن أن تلاحظ بين منيف أو نجيب محفوظ، أو بين سحر خليفة وكوليت الخوري"11. أما الناقد عبد الله الغدامي فإنه يرى أنَّ الحل الوحيد لإضفاء خصوصية لأدب المرأة هو تأنيث الذاكرة، "فبعد إدراك المرأة لهذا المعضل الإبداعي راحت تحتال لكسر الطوق الذكوري، المضروب على اللغة وراحت تسعى إلى تأنيث الذاكرة لأنه ما لم تتأنيث الذاكرة فالعينة ستظل رجلا، ولن تجد المرأة مكانا في خزان اللغة المكتنز بالرجال والفحولة"12، فالأمر الذي يخرج المرأة من حيرتها اتجاه سيطرة اللغة الذكورية، ويساعدها لأن تعبر عن رؤيتها الأنثوية للعالم هو تأنيثها للأشياء، وأول هذه الأشياء

9 المرجع نفسه، ص: 51

10 المرجع نفسه، الصفحة نفسها

11 نبيل سليمان: حوارات وشهادات، دار الحوار، سوريا، 1995م، ط1، ص: 188

12 محمد عبد الله الغدامي: المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1996م، ص: 208.

ذاكرتها كأن تجاهد لتتخلص من عقدة السلطة الأبوية في ذكرياتها وتحرر ذاتها الأنثوية من كل ما يقيم عليها السلطات.

وترى الناقدة يسرى مقدم، أنّ الخصوصية التي يراد إثباتها في الأدب النسوي هي "خصوصية وهمية ليست من ميزة الإبداع الذي يفرق بين كاتب وكاتبة، فكلاهما يتوسم فيما يكتبه حول المرأة ثقافة النمط الواحد، كما لو أنّها قانون أبدي ملزم لا يستقيم خارج وجدانه"¹³.

وفي ظل هذا الهجوم العنيف ضد تصنيف الأدب أو الاعتراف بخصوصية الكتابة النسوية، فقد رفضت معظم الكاتبات الإقرار بذلك وفضلن وسمهن بلفظة "كاتبات" فقط، على أن يكون هناك نقد موضوعي لأعمالهن دون أن تُعتبر كل مدونة كتبتها سيرتها الذاتية.

كما أنّ قصور الخطاب النقدي وعزف النقاد عن مواكبة هذا الأدب، والتنظير له انعكس سلباً على الساحة النقدية التي كان يمكن لها أن تكون أثرى وأزخر، حالها كحال الساحة النقدية في الغرب والتي تشهد رواجاً لا مثيل له.

¹³ يسرى مقدم: النقد النسوي العربي/ أنوثة لفظية وخصوصية موهومة، مجلة الموقف الأدبي، عدد 56،

2002م، ص: 20

ما سبق يقدم مبررات لرفض التصنيف الأدبي لكنه لا ينفي أبدا خصوصيته، لذلك كان لزاما علينا أن نبحث عن آراء أيدت الأدب النسوي، وآمنت بخصوصيته الفعلية وليست المفترضة.

2 - الموقف الثاني / في الكتابة النسوية خصوصية مثبتة.

بما أنّ جلّ الدراسات النقدية والأكاديمية تعتمد على مصطلح الأدب النسوي بدل النسائي، وبما أنّها أيضا أيدت فرضية أن الأدب النسوي هو ما تكتبه المرأة فقط، فإننا سننطلق في إبراز خصوصية الأدب النسوي على هذا الأساس.

ذلك أنّ المرأة أقدر على كتابة المرأة والغوص في ذاتها وأعماقها الداخلية وحكي مشكلاتها الاجتماعية ووصف آلامها ومعاناتها، "ولا يمكن لأي كاتب مهما بلغ من نضج في وموضوعي التحدث عن المرأة وسبر أغوارها ورصد مشاعرها الحميمة كما تفعل المرأة الكاتبة مع نفسها أو مع بنات جنسها، إذا توفرت اللغة التعبيرية القادرة على نقل الأحاسيس والمواقف دون خجل"¹⁴.

فوحدها المرأة تستطيع أن تكتب عن نفسها، وهذا ما يتفق فيه مع الناقد محمد برادة والذي يرى أن "اللغة النسوية مستوى بين عدة مستويات، وأنّ هذا الطرح يجب أن نربطه بالنص الأدبي، والنص بطبيعته متعدد المكونات... هناك كلام بالتلفظ

¹⁴ حسين مناصرة: المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية العربية الفلسطينية، بيروت، 2002م، ص: 22.

بالذات المتلفظة، وليس المقصود أن ندرس نصوصا قصصية وروائية كتبتها نساء... إن الشرط الفيزيقي المادي للمرأة كجسد نصوص تكتبها المرأة... يلتقي الرجل الكاتب والمرأة الكاتبة في اللغة التعبيرية واللغة الإيديولوجية، لكن هناك اللغة المرتبطة بالذات ببعدها الميتولوجي، من هذه الناحية يحق لي أن أفقد لغة نسائية....

فأنا من هذه الزاوية لا أستطيع أن أكتب بدل المرأة، لا أستطيع أن أكتب أشياء لا أعيشها.

التمايز موجود على مستوى التمايز الوجودي¹⁵

من خلال القول السابق نخلص إلى أنّ لغة الكتابة عند المرأة تختلف عن نظيرتها عند الرجل، إلا في حال تعبيرهما الإيديولوجي الفكري وما عدّا ذلك فإنّ لغة المرأة خاصة بما وحدها و فقط.

ونفس الفكرة تؤيدها الناقدة زهور كرام فهي تصرح بأنّ مجرد مصطلح "الأدب النسوي" يحيل إلى الكتابة الإبداعية، بينما يغيب هذا التصنيف عندما يتعلق الأمر بالكتابة الموضوعية أو العلمية¹⁶.

¹⁵ محمد برادة: هل هناك لغة نسائية في القصة؟ مجلة آفاق المغرب، عدد 12، أكتوبر، ص: 135.

¹⁶ زهور كرام: السرد النسائي العربي، مقارنة في مفهوم الخطاب، شركة النشر والتوزيع - المدارس - الدار البيضاء،

المغرب، 2004م، ط1، ص: 7

أما إذا تحدثت المرأة الكاتبة عن خصوصية كتابتها الإبداعية والغير إبداعية، فإننا لا نجد أصدق قولاً من لطيفة الزيات وهي تتحدث عن نفسها حين تكتب فتقول: "في الكتابة غير الإبداعية أنشغل بجانب من قدراتي، وفي الكتابة الإبداعية بمكتمل قدراتي العقلية والحسية والوجدانية... أملك أن أرفع اسمي عن مقال نقدي أو ثقافي أو سياسي، فلا يمكن للقارئ أن يعرف إذا كان صاحب المقال رجلاً أو امرأة، أما أعمالي الإبداعية فتحمل بصمتي كامرأة، وتحمل بصمتي كهذه المرأة الفريدة التي هي أنا... في الأعمال الإبداعية أكتشف رؤيتي للحياة، أبدد أوهامي، أنطق صدقا... كتاباتي الإبداعية تعرفني، وما يصدق عليّ يصدق على كل امرأة عربية مبدعة¹⁷، إنَّ اعتراف لطيفة الزيات لا تنكره أيُّ من الكاتبات، فجميعهن يتفقن أنَّ وقت المصارحة الحقيقية بالنسبة لهن هو وقت الكتابة، وكثيراً ما نجد الكاتبات تصفن أوقات إبداعهن بالمكاشفة ومواجهة الحقيقة وأحياناً بوقت العري أمام الذات أو النفس.

ويضيف حسين مناصرة مبيناً أنَّ التاريخ الذكوري "ارتكب مآسي كثيرة بحق المرأة مما جعل مصطلح "نسوي" يستمد قيمته الخاصة وفاعليته الجديدة، حيث يهدف إلى بناء حياة إنسانية جديدة للمرأة بوصفها كانت مستتلة في واقع التعايش ضمن الوعي الذكوري السائد. فتكون كتاباتها الجديدة ذات صفات نضالية، نتاج مرحلة زمنية طويلة وغنية من التجاوز لبدايات الأدب الطليعي الأنثوي¹⁸ وهو ما يخلق خصوصية

¹⁷ شيرين أبو النجا: عاطفة الاختلاف / قراءة في كتابات نسوية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط1،

1998م، ص: 12

¹⁸ حسين مناصرة: المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية العربية الفلسطينية، ص: 93.

في الأدب النسوي والذي يرتبط كما يقول جورج طرابيشي بوجود الاختلاف ليس فقط في كونها امرأة تكتب، بل لأن كتابتها يجب أن تكون مختلفة.

"فإذا سلمنا بإمكانية وجود رواية نسائية، فلا مفر من التسليم أيضا بأن الرواية النسوية ليست التي تكتبها المرأة وحسب، بل هي أيضا تلك التي تكتبها بطريقة مغايرة للطريقة التي يكتب بها الرجل"¹⁹.

جميع الآراء النقدية السابقة تفر بخصوية الأدب النسوي، اعتقادا منهم أن الاختلافات البيولوجية بين الجنسين واختلاف التجربة المعيشية لا بد أن تولد أدبا مختلفا، فالتأييد إذا نابع من الجنوسة والبيولوجية الإنسانية، لكننا لا نقتنع بمثل هذه التبريرات لأننا نتحدث عن نص أدبي فني له مقوماته وجمالياته، علاقته بجسد كاتبه لا تعدو أن تكون علاقة التزام من طرف الجسد، فهو ملزم بإكمال خلق هذه اللوحة الفنية ليرضي أثناءه ويثبغ غريزة الرضا والتفوق وربما الغرور في داخل نفس هذا الجسد، لذلك كان لا بد منّا البحث في أدبية النصوص النسوية وهو ما سبقتنا إليه رشيدة بن مسعود التي درست السرد النسائي العربي وأبرزت خصائص هذا السرد، انطلاقا من اعتمادها على تعريف الشكلايين الروس للنص الأدبي وللأدبية ومنهم رومان جاكسون في تحديد وظائف اللغة، لتضبط من خلال هذه الدراسة ملامح الخصوصية.

¹⁹ جورج طرابيشي: الأدب من الداخل، ص: 11.

كما اعتمدت على المفهوم الذي يجعل البحث في النص الأدبي بحثا في الأدبية، لأن موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب بل هو الأدبية، وهكذا يصير النص الأدبي يحيل إلى ذاته ويقع فيه التركيز على الإرسالية التي تقوم بالوظيفة الجمالية، "فالمرأة تركز على الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية والتي من خلالها يمكن للمرسل/ السارد/ الراوي، نقل حالته للمتلقي/ القارئ بغض النظر إن كان المسرود / الأحداث واقعي أو متخيل، وهو ما يضفي بعضا من ملامح الخصوصية في الكتابة النسوية"²⁰

وهذا لا ينفي هذه الصفة في الكتابات الرجالية إلا أن حضور المرسل (والذي نعني به الوظيفة التعبيرية) في كتابات المرأة، يكون مبالغا فيه مقارنة بالكتابات الذكورية.

وهو ما جعل بعض الدارسين يصفون كتابات المرأة بالذاتية وهو أيضا ما يفسر حضور ضمير المتكلم (أنا) بقوة في الكتابات النسوية، حيث يؤكد سيد حامد النساج على وجود على وجود الذاتية في قصص خناثة بنونة بقوله: "إنها صريحة على أن تكون الراوي والشخصية المحورية ، وربما الشخصية الوحيدة وهي لا ترضى بالحياد ولا يخف صوتها المهادي المرشد الناصح"²¹

²⁰ رشيدة بن مسعود: المرأة والكتابة / الاختلاف وبلاغة الخصوصية، إفريقيا الشرق، المغرب، بيروت، 2002م، ط2، ص: 94.

²¹ سيد حامد النساج: الأدب العربي المعاصر في المغرب الأقصى (1963 . 1975)، دار التراث، القاهرة، 1977، ص: 349

ونحن نتفق بشدة مع هذا الرأي، ومع فكرة طغيان الذاتية على الكتابات النسوية، فبعد قراءتنا المعمقة في عالم الرواية النسوية؛ نستطيع أن نثبت هذا الحكم على كثير من الكاتبات وعلى رأسهن هيفاء البيطار في المشرق العربي، و هي التي تعتمد على صوت الأنا كسارد وكبطل محوري في جميع رواياتها أو قصصها، مما يُشعر القارئ بنوع من الانجذاب تارة وبالملل تارة أخرى.

وهو أيضا ما تعتمده كاتبات الرواية في الخليج مما يضيف طابع السير ذاتية على أعمالهن، ويصدقُ هذا على رجاء الصانع بروايتها "بنات الرياض" التي صنعت ضجة كبيرة في السعودية، وهي تعتمد أسلوب الحكيم في سرد أحداث روايتها، ولا نبتعد عن موطنها للتلقي بأثير عبد الله النشمي والتي بمجرد قراءة عناوين أعمالها كرواية " أحببتك أكثر مما ينبغي" نحس بأنها تكتب ذاتها لا شيء سواه، وفي الكويت تعترف هنوف الجاسر في عنوان الرواية " ليتني امرأة عادية" لتدخل بالمتلقي إلى عوالمها الذاتية، ونفس الشيء تقوم به سمر المقرن حين تسم عملها الأدبي بعنوان " نساء المنكر" لتقر في صفحاته عن ذنبها ولا تختلف عنهن معظم الكاتبات اللواتي اعتمدن هذا الأسلوب.

أما في المغرب العربي فمعظم الكاتبات باستثناء الجزائرية أحلام مستغانمي . التي تميزت بثلاثيتها . ، يعتمدن أسلوب السرد الذاتي واستعمال ضمير المتكلم (الأنا) في كتاباتهن ويندر أن نصادف اسما يغيرُ من الشكل الفني للرواية كأن يغير صوت السارد

أو يبيّن أحداث عمله الفني بعيدا عن حياته، فلماذا تستمد الكاتبة إلهامها من حياتها التي تعتبرها بائسة؟ أ لأنها مازوشية بطبعها تعشق أحزانها وتذكرها!

لذلك فإن هذه الصفة وعلى ما يبدو تخص الكتابة النسوية بشكل كبير، ولعل أول من شرعت لهن هذا الباب وأعطتهن حق الأنا والحرية، كانت اللبنانية ليلي بعلبكي حين عنونت روايتها الأولى الصادرة في 1958م، بعنوان: "أنا أحياء" لتثبت من خلاله هويتها الضائعة واستقلاليتها المسترجعة حسب كارم البستاني، التي تظن أنّ "كثافة ضمير (أنا) في الكتابة النسوية مرده سعي المرأة الدائم لإثبات وجودها ورسم ملامح لهويتها المستقلة كامرأة / أنثى، وهويتها التي ظلت لعصور طويلة ومنذ فجر التاريخ تشكل أحد هواجسها، بل هاجسها الأكبر نتيجة ذلك التشويه الدائم لملامح هذه الهوية"²².

ورغم أنّ الناقد سعيد يقطين ضد تصنيف الأدب، إلا أنه يرى أنّ "تأصيل السرد النسائي أو الأدب النسوي عموما أو استئصاله بالأحرى لتجاوز الاضطراب أو الغموض المفهومي الذي يلفه، رهين بمدى قدرتنا على تحديد بعده النوعي وتجسيد أهم خصائصه البنيوية وملاحمه من داخل نظرية الأدب وليس من خارجها"²³، وهو ما أشرنا إليه سابقا من خلال بحثنا في أدبية النص الروائي أي مقوماته الجمالية والفنية

²² كارم البستاني: الرواية النسوية الفرنسية، ترجمة: محمد علي، مجلة الفكر المعاصر، عدد 34، ربيع 1985م، ص: 147.

²³ سعيد يقطين: قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجود والحدود، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2010م، 292.

والتي تصنع النص الأدبي وتسمه بجنسه الأدبي وهو ما يجعل لكل أدب خصوصية وسمات تميزه عن غيره.

ويرى الناقد محمد عفظ أنّ هناك فروقات فعلية في السرد الأنثوي والتي تميزه عن غيره، لكن رؤيته لذلك لم يكن في صالح الإبداع النسوي. فهو يقول: "إن تعبير الرواية النسوية يقيم في عمقه فروقا مطلقة بين كتابة المرأة وكتابة الرجل ويعمق التمييز المتحدث عنه سلفا، وبذلك فهو يعزل المرأة عن كينونتها الاجتماعية ويبرز كتابة المرأة باعتبارها خاصة المشاكل، ضيقة الاهتمام وبذلك يضيع المحتوى التحرري لهذه الكتابة".²⁴

وهو ما تخالفه فيه الكاتبة نورا أمين، إذ ترى أنّ كتابات الرجل نمطية ومكشوفة لا تدهش القارئ بقدر ما تفعل فيه الكاتبة النسوية، "فالخصوصية الموجودة في كتابة النساء ليست نابعة من كونهن نساء فقط، فالالاتجاه السائد الآن هو الكتابة التوثيقية فنحن لم نعد بحاجة لذريعة وجود أبطال آخرين وهذا حادث في معظم كتابات التسعينات الجديدة، لا يوجد حدث ولكن هناك تفاصيل وومضات تُكون في النهاية تأثيرا ... في كل هذا تتميز كتابات النساء، لأن الرجل عندما يكتب بشكل توثيقي فنحن نعرف 90% مما سيقوله، لأن حياته مكشوفة أما عندما تكتب المرأة في نفس الاتجاه، تأتي كتاباتها صادمة ومدهشة لأن القارئ لا يعرف سوى القليل ومن هنا تتبع الخصوصية، تجربة أنثوية في كتابة توثيقية ...

²⁴ محمد عفظ: كتابة المرأة الروائية والبحث عن الانزياح، ص: 44

إنها فكرة الصمت ثم الكلام، وهي فقط في كتابة المرأة"²⁵

وهو ما نوافقها عليه بعيدا عن كل الاعتبارات ولا لشيء إلا لأنه واقع وحقيقة وهو ما نعيشه فعليا، فالمرأة تستنطق الدفين لتكتبه بروح متجددة؛ إنها تفضح المسكوت عنه وتزيل الغموض عن كل مبهم وتكشف الأسرار جميعها، فتصنع من كتابة واقعها خيالا يشد انتباه الجميع ويجعلهم مندهشون أمام جرأتها وصراحتها الغير محمودة في كثير من الأحيان.

وهو ما جعل معظم الكاتبات يقعن في أزمة اللغة ويلجأن إلى التبريرات المقصودة منهن، ليكثر التكرار والإطناب في كتاباتهن وتصبح سمة التكرار من خصائص الأدب النسوي.

فهي تعترف بجرمها ثم تفرد العبارات والجمل لتبرر فعلتها وهو ما يظهر جليا في كتابات المرأة، ومما تم ذكره يمكننا أن نحدد معايير الاختلاف بين الرواية النسوية وغيرها لنثبت أنها موجودة فعليا وليست مفترضة.

²⁵ شيرين أبو النجا: عاطفة الاختلاف، ص: 40

3 - خصائص الكتابة النسوية:

أ - طغيان صوت السارد / ضمير (الأنا) في الكتابات النسوية:

لقد أبرزت معظم الروايات النسوية، أنها تنبني على اعتمادها الكلي للسارد والذي غالبا ما يمثل صوت الكاتبة نفسها، فتبدو لنا الأعمال الروائية وكأنها اعترافات وسير ذاتية من طرف كاتبتهن.

ب - التمرد اللغوي والتحرر اللفظي:

ما يُضفي على الكتابة النسوية خصوصية تندر في كتابات الرجل هو جرأتها في التعبير وتمردها في اختيار لغتها، والتي كثيرا ما يتخطاها الرجل لتكتب هي بواسطتها.

كما أن تحررها الفكري يظهر في مدوناتها "فحين تتكلم المرأة عن قضايا غير مألوفة أخلاقيا وخارجة عن التقليدية، تتكلم بجرأة ليست موجودة عند الرجل الذي إذا تكلم في هذا الموضوع، فهو يتكلم من باب آخر"²⁶

ج - الذاتية:

ترى فرجينيا وولف أن "حيز تجارب المرأة المحدود قد أثر سلبا على كتاباتها ووسمها بالذاتية، وأبعدها عن الاهتمام بالقضايا الوجودية والعامة التي تهتم بالإنسان والناس جميعا"²⁷، كما نبهت إلى أهمية وجود خبرات حياتية عميقة ليظهر ذلك العمق في كتاباتها؛ ولكي لا نقرأ الذات النسوية في كل عمل إبداعي نسوي.

د - خصوصية العنوان:

إنَّ العناوين التي تستهل الكتابات بها أعمالهن الروائية تُضفي طبع الخصوصية للكتابة النسوية، فتضيف عنصر التشويق للعمل الإبداعي من خلال العنوان الخارجي مما يجعل القارئ مشدود بمحتوى المتن الروائي.

وبالنسبة لقضية العنوان فقد تميزت المرأة بحق في هذه النقطة لتخلق لكل عمل أبدعته عنوانه المميز والخاص.

هـ - التميز الأنثوي البحث:

²⁶ عيسى برهومة: اللغة والجنس، حفريات لغوية في الذكورة والأنوثة، دار الشرق، ط1، 2002م، ص: 74.

²⁷ فرجينيا وولف: المرأة والكتابة الروائية، ص: 186.

فقد اهتمت المرأة الكاتبة بل وكرست كتاباتها لتكشف من خلالها أبعاد تجارب نسائية، لا يمكن لغير المرأة كتابتها أو وصفها كتجربة الحمل والولادة والإجهاض، وأيضا الاغتصاب وسياسة العنف والتهميش ضدها بالإضافة إلى القيود الدينية كالحجاب، وعدم الاختلاط في العمل أو السفر والاستقلالية الحياتية وغير ذلك.

و - الجرأة في حكي الممنوع / التابو:

هناك الكثير من الدراسات التي تطرقت للمحكي الممنوع في الروايات النسوية، والتي تقرّ في نهايتها إلى أنّ المرأة بطبيعتها ترغب في كشف المستور وتجاوز المحظور والحكي عن كل الممنوعات التي تصنعها العلاقات الوجودية والإنسانية بشكل عام، الدينية والجنسية وحتى السياسية بجرأة لا نعهد لها كثيرا في كتابات الرجل.

فإذا كان الدين تابو لا يمكن المساس بقدسيته وإذا كان الجنس هو العيب والممنوع بذاته بالنسبة للمبدع، فإنّ المرأة المبدعة توغل في تحطّي هذه المحظورات وتغوص في الحكي عنها لتضيف عنصر التشويق، الاستنكار، الرغبة والتمرد لدى القارئ / المتلقي.

وهو ما لفتت إليه جوليا كريستيفا بقولها: "تنجلي الرغبة في التأكيد الأنثوي على دور الأدب، ذلك أنّ الأدب ينشر المعرفة وأحيانا ينشر الحقيقة حول عالم مكبوت سري، وعلى الصعيد السردي فإن النصوص تحول المواضيع الاجتماعية ومن خلال كلمات التواصل اليومي إلى خطاب إبداعي حافل بلذة النص، خطاب أكثر مرونة

وأكثر حرية يعرف كيف يسمى ما لم يكن بعد موضوعا للتداول الاجتماعي كأغاز
الجسد مثلا²⁸

ز - الحس الثوري للمرأة ونضالها الدائم من أجل نصرة قضية المرأة:

إنَّ الأوضاع التي ساهمت في نشأة المرأة والمتعلقة بمكانتها الاجتماعية وتكوينها
الثقافي والعلمي، خلقت خصوصية في نفسية المرأة وليس غريبا أن تشكل عُقدا في
داخلها بفعل تراكم القيود وفرض السلطات اللأمتناهيّة أوامر على المرأة وضد المرأة.

"ومن هذه الناحية تغدو الكتابة النسوية حاملة لبذور ثورة رؤيوية لتغيير نمطية
التشيؤ التي رسمت المرأة في كتابات الذكور أو في الكتابات النسوية نفسها التي تتوافق
مع الكتابة الذكورية، وعلى هذا الأساس تعد كتابة المرأة متميزة إما بتشخيص إجمالي
لاغتراب المرأة واستنباطها لميزان القوى الراهن، وإما بموقف التمرد والمطالبة بالحقوق
داخل البنية الاجتماعية"²⁹

خاتمة:

عموما، إنَّ هذه المعايير التي اعتمدها لا تتعلق بالشكل الفني والجمالي للرواية
كجنس أدبي قائم على مجموعة من العناصر التي تشكله في هيئته وهي: "اللغة والزمان

²⁸ جوليا كريستيفا: زمن النساء، ترجمة: بشر السباعي، مجلة ألف، عدد 19، ص: 205

²⁹ عبد الكبير الخطيبي: فن الكتابة والتجربة، ترجمة: محمد برادة، دار العودة، بيروت، 1980م، ص: 61

والمكان والشخصيات، وهذه العناصر ليست ذات طبيعة جنسية³⁰، بل هي ثابتة لا يمكن تحويرها أو تغييرها وحين تتشكل تولد دلالة النص، "والدلالة تحيل على رؤية النص الروائي... والرؤية مرتبطة بذاتية الكاتب"³¹ وهو ما يجعلنا ندخل في دوامة لا انتهاء لها.

بل تتعلق - أي معايير الاختلاف - بمضامين ومتون الأعمال الروائية وقضاياها.

وكان لزاما علينا أن نشير إلى ذلك، لكي لا نعطي لهذه المعايير طابع الكلية والحتمية في دراستنا.

فالحقيقة التي يجب أن نؤمن بها وننطلق منها لنصل إلى هدفنا من هذه الدراسة، ورغم الفروقات والاختلافات التي ذكرناها، إلا أن هذا لا يعني بالضرورة اختلافا كليا بين الأدبين أو بين أدب وآخر، - فكما هو الحال لقضية النسوية هناك قضايا تسعى لتسميات عديدة في الأدب وتخصيص كل مسمى على أنه أدب مكتمل قائم بذاته، كأدب السود/ الزنوج وأدب المهجر وأدب الطفل وغيره - لأن الأدب واحد يحمل قضية واحدة ومهما اختلف كاتبه رجل أو امرأة، أبيض أو أسود، عربي أو غربي إلا أنه يبقى إنسان وهدفه من وراء كتابته نابع من إنسانيته لا شيء آخر؛ ذلك أن الأدب بتصورنا هو الحياة.

³⁰ رفيف صيداوي: الكتابة وخطاب الذات / حوار مع روائيات عربيات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،

المغرب، 2005م، ط1، ص: 17

³¹ المرجع نفسه، ص: 18